قبلة الدارسين و ملتقى العارفين

د. بلحميسي مولاي

جامعة الجزائر

لقد أخذ التاريخ السياسي لمدينة الجزائر الحظ الأوفر فسجلت أهم الأحداث وأبرز التقلبات وأكبر التغيرات وأخطر الاضطرابات منذ أقدم العصور. ونال التاريخ الحضاري والاجتماعي والاقتصادي ما يستحقه من العناية والاهتمام فشغف عدد من المؤرخين بهذا الجانب وخاصة الغربيين فتتبعوا تطور المدينة في نموها وحياتها...

واستحوذت البحرية الجزائرية وصراعها الطويل في الأبيض المتوسط وما كان لها من جاه وباع نغص الأعداء وأثلج صدر الأصدقاء فبالغ الباحثون في هذا الأمر فأسهبوا وأطنبوا ــ ولا زالوا ــ والموضوع يتجدد كلما اكتشفت وثائق ، وظهرت حقائق ، غير أن جانبا لا يقل أهمية مما سبق ولا يكمل تاريخ العاصمة بدونه وهو أصدق صورة لحيوية هذه المدينة وإشعاعها ألا وهو الدور الثقافي. وقد ضاهى ما قامت به عواصم المغرب والمشرق وأمصارها قرونا.

ورغم ما بذله المستعمر ــ بعد 1830 ــ من طمس وتشويه وافتراء فإن "مزغنة" لم تقطع الصلة يوما بعروبتها وحضارتها.

وما أكثر ما كتب دعاة التغريب والتضليل عن فقر الحياة الفكرية وجدبها فأنكروا وجود أي أثر للعلم والتعليم ونسبوا لأمتنا الكساد والركود ونفورهم للاطلاع والتأليف وزعموا أنهم أبعد الناس عن " القرطاس والقلم...

وكان لمزاعمهم هذه أهداف وأغراض : هي " تبرير العدوان وتعليل الهيمنة" باسم الحضارة والعمران.

وكانت تقارير القناصل المفيمير عندنا ومراسلات الجواسيس وكتب الرهبان نحدو حدو المؤرخين رغم أن الكثير من هؤلاء لا يعرفون من حياة الأهالي سوى القشور ورغم أنهم لم يحتكوا بالمسلمين واكتفوا بأفكار مسبقة وأغلاط مقصودة يوصلها هذا لذاك.

ولعل ما كتبه القنصل الأمريكي شيلر (Shaler) الذي شاهد السنوات الأخيرة للوجود التركي أصدق مثال للقدح والتحقير إذ قال : "لا فائدة في التحدث عن وضعية العلوم بالجزائر فهي (أي العلوم) إما مفقودة وإما مستخف بها وكل أدبهم هو القرآن".[1] وهذا نموذج فقط من الغلو والتنكر، فما أحوج هذا القنصل وأمثاله إلى الإطلاع على الحقائق وإلى اكتشاف ما جادت به قرائح العاصميين ولكن التعصب يعمي ويصم.

هذا رحالة من المشرق هو عبد البسيط بن خليل الملطي صاحب كتاب "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" ينزل بجزائر بني مزغنة سنة 868هـ الموافق لـ 1464 فيقول " دخلنا الجزائر وتبركت بسيدنا الشيخ العالم سيدي عبد الرحمن الثعالبي وسمعنا شيئا من فوائده وسألته بعض الأسئلة كانت تشكل علي وأفادنيها على أحسن وجه وأتمه ورأيت تفسيره وقرأت عليه من أوائله بعض سطوره وأجازني رحمه الله.[2]

ولم يكن الثعالبي وحده في الميدان. لقد برزت نخبة من العلماء مثل عبد الرحمن الجزائري الذي رحل إلى إشبيلية ودرس على مشايخها وكذلك ابن زروق الذي قيل إنه أول من أدخل "كتاب الأنوار" إلى العدوة {الأندلس}

ولم تكن المدينة في معزل عن مراكز العلم في المغرب والمشرق بل كانت لها صلة متينة بالأمصار تستقبل الأعلام, وتوفد رجالها لمصر والشام.

---

[1] « Il est inutile de parler de l'état des sciences à Alger ou elles n"existent pas ou elles sont méprisées. Le Coran est toute leur littérature » (Esquisse de l'état d'Alger p.37)

[2] عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف .. الثعالبي 786 ــ 875 هـ (=1384ــ 1471). ترك العشرات من التآليف منها " الجواهر الحسان في تفسير القرآن 4 أجزاء " وروضة الأنوار ونزهة الأخيار " في الفقه. قال احمد بابا صاحب نيل الابتهاج ... "وهو قدر المدونة فيه لباب من نحو ستين من أمهات الدواوين "

وعندما أصيب أهل الأندلس بالنكبة الكبرى وغلبوا على أمرهم نزحت جالية معتبرة إلى المغرب الأوسط وكثيرها حل بالجزائر وساهم في نشر المعارف.

ومن بين أعلام ذلك العصر أحمد بن بركات الجزائري [3] المكنى بأبي الخير وشرح كتاب ابن الحاجب ومن تلامذته أحمد بن يحي الونشريسي صاحب" المعيار المعرب.." وكذلك أحمد بن محمد المحدث الذي سافر للمشرق لإتمام معارفه وبقي مدة إلى أن توفي بغزة (فلسطين) سنة 760هـ (1359) . وعبد الحق بن علي الجزائري من المالكية وقضاة المدينة له فتاوى أدرجها أبو زكرياء يحي المغيلي صاحب "الدار المكنونة في نوازل مازونه" وقائمة فقهاء الجزائر طويلة...

تميزت هذه الحقبة التي امتدت إلى مطلع القرن السادس عشر بعامل موات للدراسة والتفكير وهو الوضع والموقع . قال الشريف الإدريسي : مدينة الجزائر... عامرة أهلة وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وبضاعتها نافقة ..."وقال الرحالة المغربي محمد العبدري "مدينة تستوقف بحسنها ناظر الناظر ويقف على جمالها خاطر الخاطر قد حازت ميزتي البر والبحر، وفضيلتي السهل والوعر لها منظر معجب أنيق وسور معجز "وثيق"

ولذا كله فضلها جمع من الراغبين في العلم . فكان الوسط أليق بالكثير، غير أن معظم هذه الجمهرة من الناس كانوا رواة ونقلة في أمور التفسير والحديث والفقه ويسجل لهم الجهد العجيب والسعي الجاد لخدمة ثقافة العصر وصبره المتين في طلب المزيد والتعطش إلى المفيد فقاموا بأسفار شاقة ورحلات مرهقة واغتراب مؤلم.

ثم عرفت الجزائر تحولات كبرى في مطلع السادس عشر منها قدوم الأتراك ردا على احتلال الإسبان لبعض المراكز الساحلية ولمحاربة النصارى برا وبحرا فاختاروا مدينة الجزائر قاعدة لهم لمزاياها العديدة وأنشأوا بها مؤسسات مختلفة فتزايد عدد السكان وتضاعف النشاط وذاع صيتها داخلا وخارجا فصارت عاصمة ولا كغيرها من العواصم!

لقد ازدهر التعليم في طوره الأول وتعددت مراكزه بفضل جهود الأهالي وتضحياتهم وتفانيهم عن طريق الأوقاف والصدقات والمبادرات [4] في فتح الكتاتيب

---

[3] كان معاصرا للسلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني.

[4] في سنة 1033/ =1623 اجتمع عدة أندلسيين من اهل الصناعات واشتروا دارا من مالهم الخاص فهدموها وبنوا مكانها زاوية لتعليم الصغار والكبار.

لتعليم الصبيان وكان السكان أحرص الناس على ذلك فلا يخلو نهج أو حارة من "مسيد "وعن هذه الطريقة تعلم الأولاد الكتابة و القراءة.

يقول عبد الرحمان الجامعي (ق 12 هـ =18م) متحدثا عن العاصميين : "مساجدهم بالتدريس معمورة ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة ومشهورة وعلماؤهم متضلعون بعلم النحو والفقه والحديث"ووصل عدد الكتاتيب إلى مائة ملأى بالمتعلمين حيث إن "المحل الذي لا يسع التلاميذ يجعلون فيه سدة يصعدون إليها يتعلمون القراءة ويحفظون القرآن الكريم، وحفاظه كانوا كثيرين[5] "وسجل بعض الغربيين ما كان لأولياء التلاميذ من اهتمام فائق بختم القران فمنهج التدريس بسيط والطريقة سهلة للغاية فالمعلم يسطر بعود للطفل الحروف على "اللوحة" المصلصلة وما على هذا الأخير إلا أن يقلده بقلمه القصبي[6]، وكان للبنات وللنساء حق التعلم. قال أحد الفرنسيين شاهد عيان "وحتى نساء المترفين كن يتعلمن القراءة والكتابة[7]، كما كان الناس ينتظرون بفارغ الصبر تخرج أولادهم فتقام الأفراح وتتواصل الحفلات في المنزل وفي الشارع [8] ومعظم الكتاتيب آنذاك دكاكين أو أضرحة الأولياء أو جناح من المساجد.

أما المستوى الثاني من التعليم فكان في الزوايا التي احتلت الصدارة في إلقاء الدروس وعقد الحلقات وإثارة المناظرات وكانت في نفس الوقت مأوى للغريب وملجأ للمعوز.

وكان لكل مادة تدرس شيخها أو شيوخها بموجب التخصص كما كان لكل مادة كتابها المقرر. فهذا جمع الجوامع في أصول الفقه لتاج الدين عبد الوهاب السبكي الشافعي[9]، وكانت قراءته تدوم أربعة أشهر. وهذا مختصر ابن الحاجب من مالكية مصر وعنوانه الكامل " مختصر منتهى السؤال والأمل، في علم الأصول والجدل".وتلخيص جلال الدين القز ويني في المعاني والبيان. ويضاف إلى هذه المتون عدد من الأمهات كمختصر السنوسي ونظم عبد الرحمان الأخضري

---

[5] الرحلة " التاج المشرق الجامع ليواقيت المغرب والمشرق"

[6] « Les maîtres tracent d'abord les lettres avec un crayon et les écoliers forment ensuite avec la plume " Pananti ; Relation d'un séjour à Alger (1813).

[7] A. de France ; les prisonniers d'Albdelkader;II p 96

[8] يقول المدعو Petis de la croix وكان بالعاصمة سنة 1695 :" Les marabouts tiennent les écoles (Kuttâb). Ils lisent en chantant ? Quand un écolier fait une faute ? il a des coups de bâton sous les pieds. Mais quant il sait l'Alcoran par cœur ; on le promène par la ville au son des instruments, bien vêtu. l'Alcoran sur la tête, suivi de tous les écoliers ».

[9] تحمل كتب عديدة هذا الاسم والمقصود هنا ما ألفه السبكي .

صاحب "الجوهر المكنون في الثلاثة فنون (المعاني والبيان والبديع) وألفية العراقي في المصطلح وصحيح البخاري في الحديث ومختصر خليل في الفقه وكتاب الشفا للقاضي عياض...

وقد أطلعنا على هذا الإقبال بتفاصيله العلامة محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي (1075 ــ 1120 هـ / =1663ــ 1708) وقد قدم من المغرب فأتم دراسته بالجزائر على يد مجموعة من الأعلام[10] .

قال: لما دخلت الجزائر (1683م)[11] ذات الجمال الباهر وحلول مغانيها النواضر التي غص ببهجتها كل عدو كافر... غرر أعلام ينجلي بهم الظلام وشمس أئمة تتفرج بهم كل غمه وتفتخر بهم أحبار هذه الأمة .. فلم أزل بين اقتباس أنوار واقتطاف أنوار [12]"

وورد في كتاب ابن زاكور قائمة المشايخ الذين درسوا فأفادوا ووجهوا فأجادوا أمثال محمد بن عبد المؤمن المانجلاتي ومحمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري والشيخ سعيد قدورة إمام الجامع الكبير[13]

كان الطالب يلازم شيخه سنوات يسمع المحاضرات ويحضر الجلسات ويثري المناقشات وكان السؤال حرا والجدل مباحا. ويحفظ الطالب طيلة ملازمته المشايخ يحفظ المطولات ويهضم الأمهات.

وفي النهاية ــ ولا بد من نهاية ــ يسرح " الطالب فيقام حفل مشهود تلقى فيه الخطب والأشعار، ويباركه من في المدينة ونواحيها من الأخيار ويودع المتخرج من أفادوه وأحسنوا إليه حاملا إجازته التي من أجلها شد الرحال. والإجازة هي ما يقابل في وقتنا الشهادة العلمية أو المهنية التي تؤهل حاملها الوظيف والتدريس.

كانت تخول صاحبها المنصب الرفيع وترفعه إلى مصاف العلماء. وحتى يحظى المتخرج بثقة أهله وأعيان بلده لا بد أن يكون نص الإجازة طويلا مفصلا يذكر أسماء المشايخ وشيوخ هؤلاء والكتب التي درست و المواد التي قررت والمدة

---

[10] في كتابه ــ رغم صغر حجمه ــ نشر " أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان" تصوير كامل للحياة الثقافية بالعاصمة ووصف حي لمحاسنها.

[11] شاهد ابن زاكور الفاسي هجوم الفرنسيين على الجزائر بحرا بقيادة Duquesne سنة (1683) ووصفه وصفا رائع مريعا.

[12] أنوار : ج نور ، وأنوار الأزهار

[13] هؤلاء كلهم من أقطاب القرن 11هـ =17م ومحمد بن عبد المؤمن الجزائري هو الذي حرض الداي حسن (1092 ــ 1094/ 1681 ــ 1683) على مهاجمة وهران المحتلة : نادتك وهران فلب نداها وانزل بها لا تقصدن سواها.

التي قضيت والنتائج التي حصلت وكل هذه المعلومات مسجلة تضمن مستوى الفائز.

وكانت الإقامة المؤقتة بالجزائر فرصة ثمينة للزوار لتدقيق معلوماتهم وتصحيح أخطائهم . وكانت الرحلة إلى الحجاز أو إلى المشرق مهما كان الغرض منها تستوجب قضاء أسابيع أو شهور في انتظار مركب أو وصول قافلة أو زوال وباء . فيزداد التعارف وينشط الإطلاع ويحلو الاختيار والامتحان ويكثر الأخذ والعطاء بدون انفعال أو غضب أو تكبر.

فهذا الوزير أبو الحسن علي بن محمد التمقروتي[14] يتوقف بالجزائر في رحلته إلى إسطنبول موفدا من السلطان السعدي أحمد المنصور إلى العثمانيين . فاغتنم الفرصة للزيارة والتحدث والمعاينة .

قال : الجزائر عامرة كثيرة الأسواق ... فبلادهم أفضل من جميع بلاد إفريقية. وأوجد سلعة ... وطلبة العلم لا بأس بهم .... والكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد إفريقية وتوجد فيها كتب الأندلس كثيرا". [15]وكان بالمدينة نهج خاص لبيع الكتب في مختلف الأغراض والفنون وكانت دكاكين الكتبيين للبيع والشراء نهارا وللمسامرة الأدبية ليلا.

ومن الشخصيات المغربية الذين مكثوا زمانا بالعاصمة الوزير أبو القاسم بن أحمد الزياني[16]وكان رحالة وأديبا وشاعرا. وصادفت عودة الزياني من المشرق حوادث منها تجديد جامع كتشاوة على يد الداي حسن باشا, فأعجب الضيف بحسن الاستقبال وبما رآه من البناء وهندسة وألوان دون الكل في صفحات لم يسبق لكاتب أن جاد بها . واكتشف الزياني أيضا الجالية الفاسية هنا وقاضي العاصمة وهو محمد بن مالك المغربي الأصل كما جالس الشخصيات العلمية فأكرموه وناقشوه كما اقتضت العادة.

وكان هذا الجو بجانب التعليم ــ حافزا مشجعا على الاستطلاع والجدل وإبراز الثروة الثقافية ومتانتها.

نزل العلامة أبوراس الناصري (كغيره من القاصدين بيت الله) بالجزائر العاصمة فقال يصف الجو الذي عاشه والعادات الجارية آنذاك :

---

[14] نسبة إلى تمقروت قرية بوادي درعة بالمغرب الأقصى.

[15] "النفحة المسكية في السفارة التركية " كان سفره بين 1589و1591 وقد نشرت الجزء الذي يهم الإيالة في كتابي : الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ــ الجزائر 1981ــ .

[16] 1147 ــ 1249 (= 1734 ــ 1833). وتسمى رحلته " الترجمانه الكبرى " خصص للجزائر قطرا وعاصمة صفحات عديدة وقد أقام هنا 24 يوما في الذهاب و7 أشهر في الإياب أنظر د / بالحميسي المرجع المذكور أعلاه.

"فأول رحلتي للجزائر ــ صانها الله من سوء الدوائر ــ فلقيت بها الفقيه... السيد محمد بن جعدون فقال لي : من هو شيخك ؟ فقلت المشرفي[17].

قال : كان في زمن ماض قدم عندنا هو وشيخه محمد المنور. فقلت: كيف وجدت شيخه. لما باحثته ؟ قال لي لا نظير له في تحقيق الكبرى[18]. وسكت ولم يزد شيئا وضيفني وقال لي بعد العشاء : ما معنى قول المصنف "من قوته إلا دون الا لشح " قلت له ما حضرني وبقي في قلبه شيء "

ولقيت قاضيها الشيخ محمد بن مالك فضيفني وجمع العلماء علي وتمادوا وسألوني أسئلة صعابا فتفاوضنا فيها مفاوضة كبيرة إلى قرب الفجر وإن كل ما سددت عليهم بابا فتحوا لي آخر.

ولقيت أيضا بالجزائر فقيهها وعالمها وخاطبها ومفتيها.. الشيخ محمد بن الحفاف وفي صبيحة تلك الليلة جلست في حانوت بعض الطلبة فجاء عالم جليل شيخ فاضل مشار إليه يقال له السيد عبد الرحمن البدوي القرومي فقال من حضر "هذا من نجبائنا ففاوضته و سألته عن أشياء فقهية و أصولية و لغوية ونحوية وتوحيدية فبهت ولم يجب بشيء"...[19]

ولا غرابة إن كتب الجامعي في شأن العاصمة : "هي الحمد الله إلى الآن دار الجواهر الفرد والأدب وعلم العقل والنقل وتنبت العلماء والصالحين كما تنبت السماء البقل... ولا تخلو من قراء نجباء وعلماء أدباء وأعلام خطباء"

وقد يتصور القارئ أن الحكام غائبون عن الحياة الفكرية الروحية وانهم في شغل شاغل عنها. كلا فقد ساهموا في إحياء العلوم ونشرها واشتهر كثير من الدايات بالمبادرات التي أثمرت فيما بعد وأجلها حماية العلماء.

قال أحمد الشريف الزهار في شان الداي حسين "وفي سنة 1244هـ (1828م) جعل درسا لصحيح البخاري كل يوم بجامع خضر باشا على أن يختم كل شهر ثم جعل حزبا بالجامع الأعظم وفيه أربعون طالبا يقرأون سورة إنا فتحنا لك فتحا مبينا...[20]

---

[17] عبد القادر المشرفي (توفي 1192هـ 1778م) صاحب كتاب "بهجة الناظر..."

[18] هي العقيدة الكبرى لمحمد بن يوسف ... بن شعيب السنوسي الحسني التلمساني المتوفى : 895 / = 1490 م.

[19] أخبار هذه المناظرات في رحلة أبي راس "فتح الإله ومنته...."

[20] الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (توفي 1289/ =1872). له مذكرات نشرها المرحوم توفيق المدني ، الجزائر 1974. وكان للجزائر العاصمة ــ رغم تقلص مساحتها ــ 13 جامعا ــ 109 مساجد ــ 32 زاوية عندما أغار عليها الفرنسيون."إنا فتحنا لك ...." سورة الفتح 48. آية 1.

لقد غطت الثقافة الدينية الساحة العاصمية ولكن للأدب والشعر مجاله ورجاله تعرضوا لشتى الأغراض كالتاريخ والرحلات والمقامات والترسل والطبوب الشعبي والنبات والتنجيم ذكر الحفناوي في كتابة " تعريف الخلف برجال السلف "320 ترجمة لكافة القطر منها 45 للعاصمة وحدها من عرب وترك وبربر ومن طبقات مختلفة.

وكان للشعر حظ وافر تناول المدائح النبوية والموشحات والمقطوعات الصوفية والرثاء والوصف والغزل . وإن ضاع الكثير فما وصلنا يدل على الإحساس والذوق والرقة.

يبرز ــ في هذه الفترة الطويلة ــ كتاب جمع بين الأدب والتاريخ وبين الحقيقة والخيال محتفظا بنصوص تاريخية نادرة عنوانه" التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية"[21]

لمحمد بن ميمون الجزائري خصصه لفتح وهران الأول (1708) وكانت المدينة في يد الإسبان منذ 1509 وكان النصر على يد الداي محمد باكداش (1707 ــ 1710)

وفوائد الكتاب الإخبارية جمة فهو يكشف عن استعداد الجيش الجزائري والمعارك الضارية بنواحي وهران ومراحل الهجوم والأبراج والحصون التي عززها الإسبان وتضحيات المسلمين والغنائم التي غنموها بتفاصيل وفي وقت قلت فيه الوثائق العربية.

ويعد الكتاب أيضا مصدرا أدبيا ممتازا فهو يحتوي على 16 مقامة أدبية المبنى وعلى ما يقرب من 800 بيت شعر نظمها أدباء جزائريون من معاصري المؤلف[22]فضم الكتاب مارق من الأشعار وما دق من الأخبار وفيه نكتشف بعض النفائس والجواهر ، ليتها تصل اليوم إلى الجماهير كالقصيدة التي قالها يحي بن أحمد بن أبي راشد في وصف العاصمة ومدحها:

سقى المطر الهطال أرضا تشرفت
بمصر غدت للفضل والفخر جامعه

بمزغنه الفيحاء تظهر من مدى
ترى كسقيط الثلج بيضاء ناصعه

بنور السما أبراجها قد تألقت

[21] حققه الأستاذ محمد بن عبد الكريم ــ (الجزائر 1972).

[22] أبو عبد الله بن محمد بن ميمون شارك في جميع فنون عصره ومال إلى السياسة

بنور السما أبراجـها قد تألقـــت

تروقها من أفق الأجنة طالعـــــه[23]

وكان أبو زيد عبد الرحمن الجامعي ــ رفيق بن ميمون في الزمان والمكـان " قال هو الأخر".

بلاد بـــرأس الغـرب تاج مكلـل

وخلخال سوق الشرق غير ضوامـــر.[24]

إلى أن قال :

فدعني من غر ناطة وربوعـــــها

وشـنيل ــ فالحسن انتهى للجـــزائر

فما تفضل الحمراء بيضـاء غادة

مقـرطفـة بالبـدر ذات غـــــدائر

وحاذى النثر حذو الشعر فكان لزمرة الكتاب إنتاج لا نستغني عنه وقد سبق ذكر المفتي ابن عمار وقد كان "من نوابغ عصره وأفاضل مصـره " يقـول أبـورا الناصري في رحلته فتح الإله : سلس اللسان والعبارة ، مليح التصريـح والإشـارة وأطلعتنا نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب " على الاحتفالات بـالمولد النبـوي في العاصمة واعتناء الحاكم والمحكوم به تحضيرا وترتيبا وإنفاقا كما سـبق ذكـر شاهد عيان لما حدث من القلاقل وأنجز من العمران وهو الشريف الزهار فقـد دون أحداثا كانت العاصمة مسرحا لها في غالب الأحيان[25] .

وما أكثر من كتبوا صنفوا ولم ينصفوا ومنهم قدور بن محمد بـن أرويلـة الجزائري فقيه صوفي ولد بمدنية الجزائر وبها نشأ وتعلم ثم مارس التدريس وعليـه أخذ الشريف الزهار ولما دخلت فرنسا الجزائر انتقل إلى مليانة فعينه خليفة الأمـير كاتبا لرسائله ثم أصبح كاتبا للأمير ومستشارا إلى أن أسرته السلطات الفرنسية ثـم أفرجت عنه فأشرق قصد الحج ثم التحق بالأمير يوم حل ببورصة (تركيا) ولازمـه

---

[23] طول القصيدة 10 أبيات

[24] القصيدة ذات 28 بيتا مطلعها:

لقد فتكت بالقلب فتك البوائر

عيون الظباء الآنسات الجآذر.

[25] غطت المذكرات عهد 11دايا (1754إلى 1830).

إلى أن أدركه المنون 1272/=1855[26]فكان أعرف الناس بصاحب المقاومة وتنظيمه وإدارته وحروبه.

وبجانب التاريخ والرحلة لمعت أسماء في فنون أخرى كالتطبب والنبات لا يستهان بقيمتها وقد انتهى إليها المستشرقون فحللوا بعضها وترجموا بعضها وتواصلت عناية بعضهم بهذه البحوث حتى بعد النكبة الكبرى .

عرف عبد الرزاق بن حمادوش[27]بعدة أنشطة من التجارة إلى البحث إلى الأسفار وقد صب اهتمامه على التجارب والملاحظة خلافا لذوق معاصريه المتمسك بالفقهيات والصوفيات . فمن تصانيفه القاموس المشهور بكشف الرموز في جمع وحل أسماء الأعشاب ومنافعها.[28]

أما محمد بن رجب الجزائري فقد انكب على مكافحته الأمراض ورد ويلاتها وله في هذا الغرض : الدر المصون في تدبير الوباء والطاعون " حبذا لو درسه علماؤنا لمعرفة تجارب الأوائل ومدى معرفتهم بالداء والدواء.

وكانت الطبقة غير المتعلمة تتذوق القصص والقصائد باللغة العامية . فما أكثر المناسبات كالأفراح والأعياد والسهرات والحوادث يطلق الشعراء العنان لأقلامهم، فتجول في شتى الأغراض كالفقر والغنى والحب والحرمان والبطولات والجفاء والتطلع إلى زيارة المصطفى ورغم أنه لم يصلنا إلا " قطرات من بحر" فإن هذه القسط مثير للإعجاب لسهولة ألفاظه وواقعية معانيه . ونكتفي هنا بالإشارة إلى ما قاله عبد القادر الجزائري وكان معاصرا لدخول الفرنسيين إلى العاصمة في 5 جوليت 1830 وكان من أعيان المدينة :

مزغنة سلطانة المدون بالجملة
الأجناس تخافها في البحر وبحرين
من جهة البحر قاع الناس تخافها
برج الفنار منو كي مذعوريـــن!

---

[26] كان أبوه وكيلا على ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي ولا بن رويلة كتاب قيم "وشاح الكنائن وزينته الجيش المحمدي الغالب " حقق ونشره الأستاذ محمد بن عبد الكريم . الجزائر 1968.

[27] من رجال القرن 12 هـ =18 م له رحلة سماها : لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال " تطرق فيها إلى سفره إلى المغرب ونشاطه هناك بين التجارة والتعلم . وإلى أخبار البلدين : المغرب والجزائر) وكان ابن حمدوش مولعا بالمسائل العسكرية كصنع القنبلة وتفجيرها.

[28] كان كمال محمد بن مصطفى مدرسا بجامع سفير ومؤلفا لكتاب "تنوير الأذهان في البحث على التحرز (طبعة الجزائر 1896).

يا سامعين هذا القصـــــة — خليو ذا الأمر يصـــرف
حسراه وين ذيك المـــرسى — وغنايم القهاوي و ملف
أقطر مات بهـــم رصـــــى — بسناجق الحرير ترفـــرف
قرصان داخلـــة للمـــرسى — قداش من أسيــر مكتــف
للكافرين كانت بخصـــــة — الأجناس قاع فيهـــا تحلف
منها الأحـــنوس ولات نسا — من جاء يطل يمشي زاحف

وكانت الغارات الأوربية ــ وما أكثرها ــ على العاصمـــة تحـــرك قرائـــح الشعراء تشجيعا للمقاومة وتخليدا للبطولات . فعندما قدم الدانمارك لقنبلـــة المدينـــة سنة 1184هـــ (جوليت 1770) أيام الداي محمد بابا قال أحدهم:

باتت الريـــاس واقـــفـــــة — تربط في المـــيزانـــــــــــة
بقلوب على الحرب لاهفـــة — ما هم شـــي شـــبــعـــانـــة
كيفاش الكـــافــر يطـــمــــع — في البهجى سلطانـــة الـــمدن
ما فيهاش ارجال يدفعـــــوا — عنهـــا كل بلا من الفتـــن؟[29]

يتبين مما سبق أن الجزائر العاصمة كانت مهد العلوم والتصانيف والنشـــاط الفكري المتواصل عكس ما ادعاه الغربيون فلا عجـــز ولا مســـغبة ! ولـــوا نكـــب المعاصرون على هذا التراث وبحثوه وحللوه وعرفوا بالرجال ووسطهم لما تناســـينا هذه الحقبة ولما أهملنا رصيدا نعتز به . وإذا أمعنا النظر في الكم والكيف وجدنـــا أن العلم ينشط بالمال وكان المال متوفرا بكثرة ، فالأحباس عمت المدينة ودخلها حمـــى المتعلمين وصان المؤسسات وأسعف المتعطشين للمعارف . والسبب الثاني في هـــذا الازدهار وهذا الإشعاع هو احترام الحاكم للعالم وحماية السلطة للمشايخ والطلبـــة. وقد قارن بعض الغربيين ما شاهدوه بما ألفوه عندهم فاكتشفوا ــ ولله الحمـــد ــ إن نسبة الأمية في العاصمة كانت أقل بكثير منها في أوربا[30].

---

[29] راجع القصيدة بالمجلة الإفريقية (Revue africaine) سنة 1894.

[30] يقول المؤرخ الفرنسي مونلايو (Monlaü) : « Les habous dont les revenus étaient en bonne partie dévolus au fonctionnement des écoles et des médерssa et à l'entretien des tolba, firent que l'instruction put se répandre, suscitée et entretenue par les exigences de la pratique de l'Islam. La proportion des illettrés était certainement plus faible qu'en Europe, (40% en France en 1830) » les Etats barbaresques, p.106.